

اللغة والمجتمع الإنساني

أحمد عبد الرقيب السامي

مشيخة جامعة الأزهر

يلجأ الإنسان الى لفته بمفرداتها وقواعدها يستعين بها ، يضع لهذه المعاني الفاظا او ينقل الفاظا من معانيها التي وضعت لها ، الى هذه المعاني الجديدة لتدل عليها فان لم يجد الإنسان في لفته ما يسعفه لجأ الى الاقتراض من لغات اخرى وقد يصقل ما يقترض بمصقل لفته لينتظم فيها وكأنه منها ، ولا يقتصر الامر على الالفاظ بل يمتددا الى الاساليب فهي الاخرى تنمو وتتطور ، فاذا بالاساليب لا تعرفها اللغة في زمانها السابق تدخل في زمان لاحق ، كل ذلك لان حياة الإنسان تنمو وتتطور واللغة أداة ووسيلة فلا بد لها من ان تسير تطور الإنسان والا ماتت لان حياتها بوقائها .

والذي يرجع منا الى صورته وهو طفل ، وصورته وهو شيخ طامن في السن ، وصورته وهو شاب أو صبي ، أو كهل ، يرى التغير والتبدل الذي اصاب كيانه واضحا فيما تنطق به الصور ، ولكن الإنسان لا يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل بل يلحظ نفسه وهو في يومه ، ويطلق في ذهنه من أمسه بمضمه لا كله ، واللغات شأنها شأن الإنسان : فهي تتطور وتتغير وتبدل وكل هذا يحدث في البنية اللغوية في الامس الغابر واليوم المائل .

اللغات هي : مجموعة من الرموز الاصطلاحية من حيث المفردات ، ومجموعة من القواعد النحوية الاتفاقية من حيث ضبط تلك المفردات . فهي لهذا لا تخضع لمنطق حتمي عام ، لانها اصطلاحية اتفاقية تقليدية موروثة او بتعبير آخر : ان اللغة من الامور الاعتبارية والامور الاعتبارية لا يشترط فيها ان تكون عامة بين الناس جميعا ، الا اذا اتفقوا على ما هو معتبر ، اما اذا فقد عنصر الاتفاق اختلف الناس فيما هو معتبر .

وحيث ان اللغة من الامور الاصطلاحية الاتفاقية التقليدية غير المتفق عليها بين الناس ، لهذا اختلفت اللغات فكان لكل لغة مفرداتها الخاصة بها ، وقواعدها ونظمها ، واللغة لشدة التأثر بها والتطبع عليها تبدو لتكلمها وكأنها من الامور الطبيعية ، ويبدو ما يخالفها شاذا غريبا لا يقبلونه الا في حدود معينة (1) .

النمو والتطور :

حياة الإنسان لا تستقر على حال : علومه تتطور وافكاره تتسع وحضارته تتقدم وحياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي الاخرى تتطور وتتقدم وتتمدد ، وهذا يعني انه يجد في حياة الإنسان الجديد من المعاني التي تتطلب وضع الفاظ لها . لهذا

وعمر اللغة لا يقاس بعمر الانسان ، اذ منها ما بين مولدها ومصرنا ، المئات من السنين فنصفها بأنها حديثة وما هي بالحديثة ، وأخرى ما بين مولدها ومصرنا الالوف من السنين ونصفها بأنها قديمة ، لاننا اذا رجعنا الى اصولها ، او الى اصل الاصول ، كان عمر اللغة المئات من آلاف السنين بل الملايين منها ، فهل يمكن ان يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل في هذا الامتداد الزماني؟ الحقيقة لا ، اما لماذا ؟ فلاسباب :

ان اللغة الام لم تخلف لنا من الآثار ما يدل عليها ، ويتطور الانسان تطورت لفته الى لغات وكان التطور تدريجيا فنسي الانسان اسم لفته وعاش حاضرها ، فانقرض ما انقرض وعفى الزمن على ما انقرض ، فنسيته الاجيال ، اما بالنسبة لاصول لغات عالمنا الحديث فالتى ولدتها أم وكانت ولادتها حديثة . حرف اصلها اي امها كاللغات المولودة من اللاتينية ، أما ما كانت ولادتها قديمة فقد نسيته امها ومن اللغات ما دونت مفرداتها وقوامدها ونظمها اللغوية في الاسفار ومنها ما خلف اسمها آثارا فامكن ان نشين بعض - لا كل - صور تطبيقاتها وتغيرها وبديلها ومنها ، ما لم يدون في الاسفار ولم يخلف اسمها الآثار فلا نعرف عنها الا صورتها الحاضرة ، ان لم تكن قد انقرضت ، ونعود الى لغات العالم التى تحتفظ بصور تغيرها وبديلها وتطورها ونسال هل تعطي هذه الصور واقعا يطابق واقع اللغة وهي تتطور وتتغير وتتبدل في الامتداد الزماني لهذا التطور والتبدل ؟.

الحقيقة لا : لان هذه الصور نسبية تماما كصورة الشيء لا تعني انها حقيقة الشيء بكل كيانه ومقوماته وصفاته ، فكم من الالفاظ بادت ، وكم من الاساليب عفى عليها الزمن ، وكم من القواعد والنظم لم تصل اليها اجهزة المصور اللغوي فانساها الزمن .

وسؤال آخر يقفز الى الذهن ويتطلب الجواب :

ما هي اسباب النمو والتطور والتبدل والتغير والانقراض في اللغات ؟ والجواب على ذلك اننا نجد اهم تلك الاسباب فيما ياتي :

1 - النمو والتطور والتغير والتبدل في حياة الانسان نفسه وهذا يدفعه الى ان يضع لما يجد من جديد الالفاظ واساليب ونظما لغوية .

2 - نقل الالفاظ الموضوعية للمعاني ، فتطاول الزمان يدمو الى وضع الفاظ جديدة .

3 - من المعاني ما يرتبط بمصر من المصور فاذا انقرض المصور لا تكون هذه المعاني من التراث الفكري والحضاري للجيل اللاحق فتهمل ثم تنسى باهمال الفاظها .

4 - وعدم وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد تراثه الفكري والادبي وازاء ذلك يضطر الانسان الى ان يغير ويبدل او يهجر لفته .

5 - التحريف والتغيير والتبدل في اللغة قد يستقر في دلالة فيخرج الاصيل حتى ينسى .

6 - ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية انفاقية غير مستقرة لهذا فقد تلد لغات او لهجات ، وقد تستقر هذه اللغات واللهجات المولدة وتهجر اللغة الام .

7 - تسرب الدخيل والمولد الى اللغة مع عدم الحاجة اليهما وبمرور الزمان قد يتغلب الدخيل والمولد على الاصيل .

8 - تجاوز الام واختلاط الشعوب ، سبب من اسباب تطور اللغة ونموها فتقترض اللغة من لغات الامم والشعوب ما تقترض منا هو ليس موجودا فيها .

9 - تعرض الامم للغزوات والنكبات يعرض احيانا الامم المغلوبة الى فقدان لغتها عندما تفرض الامم الغالبة لغتها عليها ، او تنائر لغة الامم المغلوبة بلغة الامم الغالبة .

10 - انقراض الاسم والشعوب يؤدي الى انقراض لغتها لان اللغات ترتبط بمتكلمها فاذا انقرضوا انقرضت .

11 - تشتت الامة والشعب يؤدي الى تآثر لغتها او لفته بلغات الامم المخالطة مما يؤدي الى مسخ لغة الامة المشتتة .

12 - بعض اللغات تمتاز بسهولة قواعدها ومرونة اساليبها ، وهذا قد يدفع بعض الامم الى هجر اناتها اذا كانت قواعدها واساليبها شديدة التعقيد .

وذاتيتها ، ويتكلمها الملايين ، وهذا هو الذي يدمونها
الى التساؤل ما هي المقاييس التي يقاس بها كون
اللغة حية او ميتة ؟

مما يجاب به على هذا التساؤل : ان العلماء
يختلفون في المقاييس التي تعتبر اللغة : لغة حية
وللاختلاف اسباب : فمن العلماء من يعتبر المجتمع
هو المقياس ، فاللغة التي يرتضيها المجتمع بمفرداتها
وقواعدها واساليبها ونظمها ، هي اللغة الحية لان اللغة
كما عرفها بعض الباحثين هي وسيلة للتعبير والتفاهم
وليست غاية ، وللمجتمع ان يختار الوسيلة التي
يرتضيها ، ويضيف العلماء الى ما سبق شرطا آخر
اذا توفر في اللغة باضافة الى ارتضاء المجتمع كانت
اللغة لغة حية ، وهي ان تكون اللغة سهلة في قواعدها
مرنة في اساليبها ونظمها وعلى اساس هذا المقياس :
للمجتمع ان يغير ويطور ويبدل في اللغة ما شاء الا في
حدود ضيقة كان يجري تأليف وترتيب الكلمات وفق
نظام ثابت ليؤدي الكلام المؤلف منها معناه العام .

ان الحياة تتطور وفي تطور مستمر، واللغة
ينبغي لها ان تسير هذا ، وهي وسيلة وللمجتمع ان
يختار تلك الوسيلة ولا ينبغي لتلك الوسيلة ان تقيد
المجتمع وتقف حجر عثرة أمام تطوره واحتياجاته .

وبعض العلماء لا يعتبر المجتمع هو المقياس بل
يعتبر وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم
وحفظ ونقل وتخليد آثاره الادبية والعلمية والفكرية
والمقائدية هو المقياس .

فاللغة التي تفي بذلك لغة حية ولا يسمح هؤلاء
العلماء لاممهم ان يغيروا ويبدلوا ويطوروا في لغتهم ،
كيفما شاءوا ، بل لابد ان يكون التطور والتغير في
اللغة يجري على اساس من قواعدها واساليبها اللازمة
الابحار ، هؤلاء العلماء يربطون بين لغتهم وبين
تراثهم العلمي والفكري والحضاري ، ويربطون بينها
وبين عقائدهم ونظمهم وبينها وبين مشاعرهم واهدافهم
في الحياة (2) .

نشأة اللغة الانسانية :

قد كثر القائلون والباحثون في نشأة اللغة
الانسانية واصلا منذ اقدم العصور ولا زال علماء
اللغات يدرسون ويبحثون ، ولقد هاجها فلاسفة

نواحي التطور والتغير اللغوي :

1 - التبدل الصوتي للحرف والكلمة : وذلك
بان يتغير صوت الحرف وعلى سبيل المثال حرف
الجيم العربي يلفظ في لبنان وسوريا بصوت يختلف
عنه في مصر ، وفيهما عنه في العراق ، وكذلك في
مصر نفسها حرف الجيم يلفظ في الصعيد بصوت
يختلف عنه في القاهرة ، وكذا حرف القاف والصاد ،
او ان يتغير صوت الوحدة اللغوية .

2 - توسيع القاعدة اللغوية وذلك بان يخضع
اهل اللسان ما يقترضونه لقواعدهم اللغوية فيجرون
عليه ما تجري عليه قاعدة لغتهم او توسيع القاعدة
لتشمل الشاذ غير الخاضع لها .

3 - اقتراض المفردات : وذلك حين تعجز
قواعد اللغة عن الوفاء بوضع مفردات جديدة او لا
يكون ذلك من عجز وانما تكون المفردات الاجنبية قد
استقرت بحيث لا يمكن احلال مفردات لغوية موضوعة
بموجب القواعد اللغوية للغة .

4 - استعارة اساليب او تراكيب لا تعرفها
اللغة : ومن امثلة ذلك في اللغة العربية : ذر الرماد
في العيون ، وهاش ستة عشر ربيعا ، ووضع المسألة
على بساط البحث ، ولا جديد تحت الشمس ، وساد
الامن في البلاد .

ومن امثلة ذلك ايضا ، الاصطلاحات الفنية
والادارية : كهياة المحكمة وتشكيل المحاكم ، وانعقدت
المحاكم ، وعمريرة الرسوم ، واللاسلكي ، والانهائي .

5 - تبدلات نرفية مختلفة : كالنقل والارتجال
والاستعمال المجازي والنحت على غير قياس او
سماع .

مقاييس اللغة الحية :

من اللغات ما توصف بانها : حية ، ومنها ما
توصف بانها : ميتة ، والميتة هي اللغة التي تشتت
الشعب الذي يتكلمها فخالط امما وشعوبا مختلفة
اللغات وكن ان مسخت لغة الشعب المشتت ، وقد
يطلق وصف الميتة على لغات تحتفظ بشخصيتها

اليونان وعلماء اللغة العربية والإسلام واهتم بها الباحثون المحدثون من الأوروبيين ومشى على آثارهم كثير ممن أخذ عنهم ، وخاصة العرب منذ القرن التاسع حتى اليوم وقد اختلفت وجهات النظر ونتج من ذلك نظريات كثيرة منها : أن اللغة الهام وتعليم من الله : بمعنى أن الواضع للغات هو الله سبحانه وتعالى وقد بلغها الإنسان بطريق الوحي والالهام أو بإبداع ذلك في طباعه .

1 - وذهب إلى هذا الرأي جماعة من المفسرين وقد حكى ابن جنى من بعض المفسرين في تفسير الآية « وعلم آدم الاسماء كلها » أن الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومانية ، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم أن ولده تفرقوا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه ، واضمحل عما سواها لبعد عهدهم بها ، وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به (3) .

ومن ابن عباس أنه كان يقول : علمه الاسماء كلها وهي هذه الاسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وجمل وحمار وأشياء ذلك من الاسم وغيرها ، ومن مجاهد أنه قال : علمه اسم كل شيء ، وقال غيرهما : إنما علمه أسماء الملائكة ، وقال آخرون : علمه أسماء ذريته أجمعين .

2 - ومن ذهب هذا المذهب : الأصوليون ، قال الأمدى حاكبا آراء العلماء في ذلك: اختلف الأصوليون فيه، فذهب الأشمري وأهل الظاهر وجماعة من الفقهاء إلى أن الواضع هو الله تعالى ، ووضعه لنا متلقى من جهة التوقيف أما بالوحي أو بأن يخلق الله الأصوات والحروف ويسمعا الواحد والجماعة ويخلق له أولهم: العلم الضروري بأنها قصدت للدلالة على المعاني ، محتجين على ذلك بآيات منها قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » وهذا يدل على أن آدم والملائكة لا يعلمون إلا بتعليم الله تعالى ، ومنها قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم

يعلم » . واللغات داخلية في هذه المعلومات ومنها قوله تعالى : « أن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان » ذمهم على تسمية بعض الأشياء من غير توقيف ، وقوله تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم » المراد به اللغات لا نفس اختلاف هياكل الجوارح من اللسان . لان اختلاف اللغات ابلغ في مقصود الآية (4) .

3 - وذهب طائفة من علماء اللغة إلى مثل ما ذهب المفسرون والأصوليون حكى ابن جنى في الخصائص من استأذنه أبي علي الفارسي المتوفى سنة 377 هـ قال : أن أبا علي رحمه الله قال لي يوما هي من عند الله واحتج بقوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » (5) .

وأيد ابن جنى هذا الرأي فقد جاء عنه في الخصائص : « وأعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت دائم التنقيص والبحث عن هذا الموضوع ، فأجد الدوامي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التفول على فكري ، وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والأرھاف والرقّة ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر ، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا ، ومنه ما حدوته على امثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه ، وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديره منه ، ولطف ما اسعدوا به ، وانضاف إلى ذلك وأرد الأخبار الماثورة بأنها من عند الله عز وجل فغوى في نفسي اعتقاد كونها من الله سبحانه وانها وحي (6) .

4 - وقال أبو الحسين أحمد بن فارس : أن لغة العرب توقيف ، واستدل بالآية « وعلم آدم الاسماء كلها » وتفسير ابن عباس ومجاهد وغيرهما . ولكن أبو الحسين بعد أن أطلق كلامه هذا الإطلاق رجح فخصص ما عمم فقال : ولعل ظانا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد وليس الأمر كذلك ، بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إليه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم عليه السلام من الأنبياء نبيا نبيا ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فأتاه الله من ذلك ما لم يؤته أحدا من قبله (7) .

الحسين احمد بن فارس فهو تقليد لائمة الدين ، وقد كان الشيخ محافظا شديد المحافظة وقد عدل كلامه فضيق دائرة الدعوى ، واما انكاره على العرب انهم اجتمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه فيكفي في رده ما نقله غير واحد من ائمة اللغويين من ان رؤية الحجاج وجريس وابن احمر الباهلي انفرد كل منهم بالفاظ لم يقلها غيره من العرب ، وانهم كانوا يرتجلون اللغة احيانا فهذا دليل على استمرار نمو اللغة حتى العصر الاموي والى انقضاء عصر الفصحى العربية قبل ان يسيل سيل المعجمة وتفسد السلائق باختلاط العرب بغيرهم الاختلاط الاكبر في العصر العباسي ، وليست الواضحة والاصلاح والتواطؤ الذي يريده القائلون به، الا ان يخترع اللفظ مخترع فيقبله منه الناس ويستعملوه .

وخلاصة ما تقدم : ان القائلين بان اصل اللغة توقيف ووحى يموزهم الدليل العلمي لا الدينى ولم نجد هذا الدليل فيما بين ايديهم من فروع واحتمالات .

وقد ذهب هذا المذهب من اليونانيين قديما الفيلسوف « هيراقليط » ومن الاديبيين المحدثين طائفة على راسهم الاب « لامي » في كتابه « فن الكلام » ويستند الى نصي الفقرتين 19، 20 من الاصحاح الثاني من سفر التكوين وهما « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها ويحمل كل منها الاسم الذي يرضه له الانسان فوضع آدم اسما لجميع الحيوانات الستائة وطيور السماء ودواب الحقول » .

وهذا الدليل فوق انه دليل ديني ليس فيه شيء من الاستدلال على اصل الدعوى وقد بان من هذا ومما تقدم ان هذا المذهب مجرد دعوى لا سند لها غير الآلة النقلية التي ليست نصا في الموضوع (10)

ولكن بعض العلماء توصل الى دليل عقلي ينهض قويا ليدعم الادلة النقلية وهذا الدليل : ان الانسان الاول لما كان نبيا فهو لابد له لكي يفهم ما يوحى اليه ولا بلاغ رسالته من لغة يستطيع بها تفهم وابلاغ رسالته ، والا تعذر عليه التبليغ وتفهم ما يوحى ، فالله سبحانه لما خلق ابا البشر واصل الخليقة آدم عليه السلام واسكنه وزوجه الجنة ، وأوحى اليه هو وزوجه ان يأكلا من الجنة حيث شاءا وان لا يقربا

ثم قال فان تعمل لذلك اليوم متعمل ، وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ، ولقد بلغنا من ابي الاسود ان امرا كلمه ببعض ما اتركه ابو الاسود . فسأله ابو الاسود عنه فقال : هذه لغة لم تبلغك . فقال ابو الاسود يا ابن اخي لا خير لك فيما لم يبلغني .

وجاء انه لم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجتمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه (8) .

وقد كان في الصحابة رضي الله تعالى عنهم وهم البلغاء والفصحاء من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به وما علمناهم اصطلاحوا على اختراع لغة او احداث لفظة لم تتقدمهم (9) .

قال الاستاذ مصطفى السقا بعد ان اورد اقوال اصحاب المذهب السابق : والذي يلوح لي ان اكثر ما استدلل به اصحاب هذا المذهب ادلة دينية مع ان البحث نظري عقلي ، لا ديني فينبغي ان يستبعد منه الاستدلال بالآيات والاحاديث ونحوها ، على ان الآية الاولى التي هي معتمد القوم في الاستدلال ليست نصا في الموضوع وانما هي من قبيل الظاهر الذي يحتمل اكثر من وجه فقد يمكن تاويلها بان الله اقدر آدم على ان واضع عليها : قال ابن جنى في الخصائص بعد ان اورد الآية وهذا لا يتناول موضع الخلاف ، وذلك انه قد يجوز ان يكون تاويله : اقدر آدم على ان واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة فاذا كان ذلك محتملا وغير مستنكر سقط الاستدلال به وقد كان ابو حاي رحمه الله ايضا قال به في بعض كلامه .

وليس يعنينا بعد ذلك من الادلة التي استدلو بها غير كلام ابن جنى وخلاصته انه رآى في احكام اللغة ودقة تنظيمها ما جعله يعتقد ان ذلك الاحكام لا يتأتى من غير الله ، وهذا الدليل ان لم يكن صريحا في التدين فهو مقنع بقناع الدين . فان كثيرا من اعمال القدماء كالاغرام وغيرها آية في دقة الصنع فهل نقول ان صناعتها هو الله من اجل اتقانها . على ان ابن جنى نفسه بعد ان ذكر كلامه الذي سبقناه ، لم يلبث ان شعر بما فيه من ضعف فاستدركه على نفسه بقوله ، كذلك لا ننكر ان يكون الله قد خلق من قبلنا وان بعد مداه منا من الطف منا اذهانا واسرع خواطر واجرا حنانا فاقف بين الخليطين حبيرا واكاثرها فانكفيهم مكتورا ، وان خطر خاطر فيما بعد ، يملق الكف باحدى الجهتين ويكفها من صاحبتها . قال الاستاذ مصطفى السقا : اما صدر كلام ابي

شجرة معينة وغير ذلك مما خاطبهم به . فلا بد من غير شك انه علمهما معاني ما خاطبهما به وما اوحى به اليهما . بل الظاهر انه سبحانه علمهما ما يتخاطبان به فيما بينهما او مع الملائكة ، وذلك لاتمام النعمة عليهما في الجنة .

نعم من الجائز ان الله اودع في آدم وذريته الاولين قوة توسيع اللغة الاصلية ثم تفرعت منها لغات بعد ذلك حسب التكتلات البشرية في اقطار المعمورة فكان لكل كتلة منهم لغتها ولهجتها ونغمتها الخاصة « 11 » .

المذهب الثاني :

ان اللغة تواطؤ واصطلاح : وخلاصة هذا المذهب ان الواضع للغة هو الانسان وان وضعه لها ، كان على مراحل ، ولقد ذهب الى هذا المذهب اكثر اهل النظر ، كما قال ابن جنى في الخصائص . هذا موضع محوج الى فضل تأمل ، غير ان اكثر اهل النظر على ان اللغة انما هي تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف « 12 » .

ولعل المراد باهل النظر في كلام ابن جنى المتكلمون عامة والمعتزلة منهم خاصة ، وكان ابن جنى واستاذة ابو علي الفارسي منهم كما ذكر السيوطي في كتاب المزهري .

1 - حكى ابو الحسن علي بن محمد الامدي في كتاب « الاحكام » ان البهشية وجماعة من المتكلمين ذهبوا : الى ان ذلك من وضع اهل اللغات واصطلاحهم وان واحدا او جماعة انبعثت دأبته او دأبتهم الى وضع هذه الالفاظ بازاء معانيها ثم حصل تعريف الباقيين بالاشارة والتكرار كما يفعل الوالد بالولد الرضيع وكما يعرف الاخرس ما في ضميره بالاشارة والتكرار مرة بعد اخرى محتجين على ذلك بقوله تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » وهذا دليل على تقدم اللغة على البعثة والتوقيف (13) .

2 - وزاد ابن جنى على هذا المذهب توضيحا بقوله : ذهبوا الى ان اصل اللغة لا بد فيه من الواضحة وذلك كان يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الابانة من الاشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد

سمة ولفظا ، فاذا ذكر عرف به ما مسماه ، ليمتاز عن غيره ، وليغني بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك اقرب واخف واسهل ، من تكلف احضاره لبلوغ الغرض في ابانة حاله ، بل قد يحتاج في كثير من الاحوال الى ذكر ما لا يمكن احضاره ولا ادناؤه كالفاني . وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو جاز وغير هذا مما هو جار في الاستحالة والبعد مجراه ، فكانهم جادوا الى واحد من بني آدم فاوماوا اليه وقالوا انسان انسان فاني وقت سمع هذا اللفظ علم ان المراد به هو الضرب من المخلوق ، وان ارادوا سمة عنه او يده اشاروا الى ذلك فقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم او نحو ذلك ، فتمت سميت اللفظة من هذا عرف معناها وهلم جرا ، فيما سوى هذا من الاسماء والافعال والحروف ، ثم لك بعد ذلك ان تنقل هذه المواضع الى غيرها ، فتقول الذي اسمه انسان فليجعل مكانه مرد والذي اسمه رأس فليجعل مكانه سر ، وعلى هذا بقية الكلام ، وكذلك لو بدلت اللغة الفارسية فوقعت المواضع عليها لجاز ان تنقل ويولد منها لغات كثيرة من الرومية والزنجية وغيرها وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الاسماء كالنجار والصائغ والحائك والبناء وكذلك الملاح . قالوا : ولكن لا بد لاولها من ان يكون متواضعا بالشاهدة والايماء « 14 » .

وعلى ذلك اختلفت اقلام ذوي اللغات ، كما اختلفت انفس الاصوات المرببة على مذاهبهم في المواضع ، وتوسط قوم بين المذهبين فذهب ابو اسحاق الاسفرايني الى ان القدر الذي يدهو به الانسان غيره الى التواضع بالتوقيف ، والا فلو كان بالاصلاح فالاصلاح عليه متوقف على ما يدهو به الانسان غيره ، الى الاصطلاح على ذلك الامر ، فان كان بالاصطلاح لزم التسلسل وهو ممنوع ، فلم يبق غير التوقيف ، وجوز حصول ما عدا ذلك بكل واحد من الطريقتين « 15 » .

وخلاصة الرد على اصحاب هذا المذهب في ان قولهم : باجتماع حكيمين او ثلاثة فصاعدا ، ليضعوا لكل شيء سمة ولفظا ، ليس الا مجرد خيال وحس وظن وان الظن لا يغني عن الحق شيئا ، ذلك الى ان القول بان الانسان وضع من اول الامر كلمات ذات مقاطع مركبة يجاني طبائع الاشياء اذ ان التسدرج

والحركات ، حتى تكاثرت فجعل يحكي الاصوات التي يسمعا ، فكان اذا اراد ان يشير الى الغراب قال: لفاق ولما وجد حكاية الاصوات هذه بقي بالمقصود اعتمد عليها فحصلت منها اصوات اللفظة ثم طرأ عليها التركيب والنحت والحذف والتغيير وما شاكل ، فتألفت سائر الفاظ اللفظة من كل خاطر يخطر في النفس « 20 » .

وبمقتضى هذا المذهب كان الانسان اذا اراد استحضار معنى الحصان عبر عنه بصهيله « حم حم » او معنى الكلب عبر عنه بمحاكاة نباحه « هو هو » وهكذا واذا اراد الدلالة على معنى قطع الفصن او قصفه نطق بالصوت « قط او قص » او معنى سقوط الحجر على الارض نطق بالصوت « طق » لما بين هذه الاصوات ومعانيها من المناسبة وقد قال الخليل : كأنهم توهوا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا « صر » وتوهوا في صوت البازي تقطيعا فقالوا « صرصر » ومن الطبيعي ان يكون التفاهم في هذا الطور الاول بكلمات متقطعة لا بجمل ، وان هذه الكلمات كانت حكاية لاصوات « الاشياء او حكاية افعال ، اما الحروف التي تربط بين الكلمات في الجمل فلم تكن نشأت بعد « 12 » .

فانت ترى ان اللفظة نشأت بمحاكاة الانسان لاصوات الطبيعة وكانت المحاكاة في اول امرها مضموية اي لم يقصد بها الاصوات الحاكية : التعبير من المعاني المحكي منها بها للاتصال بالغير ، ان الوظيفة الاجتماعية للغة لم تبرز في اول الامر ، ثم وجد الانسان ان هذه الوسيلة مثمرة ونافعة وسهلة في دلالتها على المعاني ، لهذا أصبح يطلق على الاشياء اصواتا هي حكاية لاصواتها الصادرة عنها للدلالة عليها وللاتصال بالغير ، فمعنى هذا ان استعمال الانسان لاصوات الحاكية أصبح استعمالا شعوريا اراديا هادفا ، وهنا يبرز العنصر الاجتماعي للغة : الرموز الصوتية ، ثم طرأ على الاصوات الحاكية الدالة : التركيب والنحت والحذف والزيادة والقلب والابدال ليدل الانسان على معاني جديدة باصوات متمايزة وبعد ان التفث الى اهمية وفائدة الرموز الصوتية في الدلالة على المعاني المصوتة وغير المصوتة ، المادية وغير المادية ، وكان هذا على مراحل ثم ان التصرف في الاصوات الحاكية بالكيفيات المتقدمة يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات

والترقي من البسيط الى المركب ، هو القانون الملحوظ في نشأة الظواهر الاجتماعية التي من اهمها ظاهرة اللفظة كما يلاحظ ذلك في نشأة لفة الطفل وتدرجها شيئا فشيئا .

واما الاستدلال بالآية « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » فليس فيه دليل ، لانه يجوز ان يكون التوقيف الذي قبل التواضع بالوحي من غير واسطة اللفظة ، على اننا نقول ما قلناه آنفا ان الاستدلال بالنصوص الدينية في مقام البحث العلمي لا يجوز ، ولذلك كله توقف جماعة من العلماء عن القطع بأحد المذهبين فذهب القاضي : ابو بكر الباقلاني وغيره من اهل التحقيق الى ان كل واحد من هذه المذاهب ممكن بحيث لو فرض وقوعه لم يلزم منه محال لذاته واما وقوع البعض فليس عليه دليل قاطع ، والظنون متعارضة يمنع معها المصير الى التعمين ، ولذلك ايضا قال الامدي والحق ان يقال ان كان المطلوب في هذه المسألة يقين الوقوع لبعض هذه المذاهب فالحق ما قاله ابو بكر الباقلاني اذ لا يقين من شيء منها « 16 » .

المذهب الثالث :

ان اللفظة نشأت من الاصوات ويرى هذا ، العلماء الاوربيون المحدثون وسبق اليه علماء اللفظة العربية قال ابن جنى في الخصائص : وذهب بعضهم الى ان اصل اللفظة كلها انما هو من الاصوات السموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ، ونقيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الطي - صوت تبس الغباء عند السفاد - ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عند ذلك فيما بعد « 17 » .

ويقول ابن جنى : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل « 18 » .

ويرى الاب « انتاس ماري الكرمل » نفس هذا الرأي ويقول : الكلام وضعت في اول امرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لاصوات الطبيعة « 19 » .

وهذا المذهب قال به جماعة من المتأخرين مثل : « آدم سميث » و « روكر ستيورت » وتقل عنهم ان الانسان كان يعبر عما في ضميره بالاشعارات

الاجتماعية لم اقرت هذه الاصوات المتصرف بها مع الزمن ، فبعد كثير منها من اصله وهو الصوت الذي حاكى به الانسان الاصوات الطبيعية وهكذا نشأت اللغة «22» .

ويستدل اصحاب هذا المذهب على صحته :

1 - بأنه اقرب المذاهب الى البساطة التي تقتضيها حياة الانسان البدائي وتقتضي التدرج والتطور الذي تقتضي به طبائع الاشياء والذي يلحظ في نشوء الظواهر الاجتماعية عامة .

2 - وبأنه توجد مناسبة ملحوظة بين الاصوات وما تدل عليه من معنى وهذا امر ظاهر في لغات الامم الاولى .

3 - وبأنه شبيه بنشأة لغة الطفل التي تتدرج من الاصوات الساذجة المستطيلة الى الاصوات المقطعة، ثم يتدرج الى الكلمات ذات المقاطع المركبة اذا كملت اعضاء النطق عنده .

ولا يرد على هذا المذهب من النقد ما ورد من المذاهب الاخرى السابقة ولذلك كان اقرب المذاهب الى العقل ون لم يوصل الى اليقين في نشأة اللغات وقد ارتضاه ابن جني في كتابه الخصائص حين قال : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل .

والاصوات جمع صوت : وهو الجرس الذي ينتقل بالهواء الى حاسة السمع ، وتنقسم هذه الاصوات بحسب المصدر الى الذي تنبعث منه الى تسمين : الاول الاصوات الطبيعية كصوت الريح او الرعد او النار، او جري المياه وانصبابها من علو الى اسفل ، وكاصوات الحيوان والطير والاصوات التي تسمع من الانسان في احوال الانفعال كالانين والصراخ والعويل وكاصوات الفرح والطرب ونحو ذلك .

والثاني : الاصوات غير الطبيعية كاصوات الحركات والافعال التي يفعلها الانسان واصوت الآلات والادوات التي يستعملها كآليز الطائرات وجمعية الطواحين وصوت المنشار في الخشب ووسوسة النقود والحلي وصرير الابواب وصلصة الاجراس وما اشبه ذلك .

ويلحق بهذا القسم الاصوات البدائية التي اخترعها للدعاء الحيوان او لرجوه ، وتنقسم الاصوات من حيث صفاتها الى اصوات ساذجة وهي التي تمتد في استطالة بدون تقطيع كصوت زمارة الانذار عند انتهاء الفارات وكصفير الحيوان او الانسان من غير ترجيع ولا تكرير. وهذا النوع ليس موضوع بحث اللغويين، والى اصوات مقطعة كالحروف التي يلفظها الانسان بالاعتماد على المقاطع والمخارج وكالاصوات الطبيعية التي سبقت الإشارة إليها فانها وان صدرت عن اشياء لا مقاطع لها كمقاطع الانسان فقد تمكن حكايتها بالالفاظ اللغوية الانسانية ذات المقاطع والحروف جرت عليها احكامها «23» .

وهناك من العلماء من يقرر ان اصل اللغة الاصوات الانفعالية للانسان التي كان يطلقها الانسان في ظروف حياته البدائية وهي تختلف باختلاف حالاته النفسية والجسمية وباختلاف الظروف المحيطة به وكانت تلك الاصوات في بدايتها عفوية لم يقصد منها الاتصال بالغير بل هي مجرد اصوات تصدر عنه كتعبير عن حالة من حالاته الانفعالية ، ولما اربطت هذه الاصوات بتلك الحالات الانفعالية نتيجة تكرارها عند تعرضه لها اتجه الى اهمية هذه الاصوات وفائدتها فاخذ يستعملها للاتصال بالغير وبهذا أصبح الصوت يخدم غرضا اجتماعيا وكان أن وسع مجال الصوت في الدلالة على الاشياء تدريجيا وهكذا نشأت اللغة «24» .

المذهب الرابع :

يقرر كثير من العلماء المحدثين أن أصل اللغة يرجع الى جذور نفسية وفي هذا عدة نظريات :

1 - أصل اللغة رغبة الانسان في أن يرى الواقع مرموزا اليه وفي ذلك نجد الاستاذ سابر Sapir وهو من المشتغلين بفلسفة اللغة لا يرى أن الحاجة الى التفاهم انشأت اللغة . بل يرى أن منشأها رغبة الانسان في أن يرى الواقع مرموزا اليه أو معبرا عنه بالرموز . ثم اكتشف مصادفة أن ذلك خير وسيلة للتفاهم «25» .

2 - أصل اللغة التعبير عن الحالات الانفعالية .

3 - أصل اللغة التعبير عن المعاني الكامنة وفي هذا يقول «ماكس» وهو من أشهر من قال بهذه

وكان ان وسع من نطاقها وطورها لتخدم المراضه التي
يمكن ان تؤدبها .

المذهب الخاص :

الاصل الاجتماعي وخلصته : ان اللغة نشأت
بظهور البلدة الاولى لتكوين المجتمع ، وان الانسان كان
مضطرا لان يفهم نبع الآخرين لاسباب ودوافع
كثيرة ، لهذا كان يطلق اصواتا في حالات مختلفة ،
ثم اكتسبت هذه الاصوات صفة التباين النسبي
حتى اصبحت لها دلالتها ، على معان معينة ، فاخذ
يستعملها للتعبير والاتصال بالآخرين لتحقيق غرض
ما ، فنشأة المجتمع هي سبب نشأة اللغة ، واللغة
هي التي جعلت للمجتمع البشري وجودا انسانيا .

النظرية في القرن الماضي 1865 م « في الانسان قوة من
شأنها التعبير عما في ضميره بكلمات ملفوظة فكان الفكر
اولما يجول في دماغه كأنه يقرع تلك القوة لتصون بالفاظ
يفهم الفكر منها ، وهذه الالفاظ هي اصول اللغة ثم
تقلبت عليها اطوار التعبير والتركيب فتألفت مفردات
اللغة ، ولما تم الاستنباط دوج عليها الاستعمال ، ولم
يبق لهذه القوة من حاجة ، فاهملت وتضعفت ولم
تعد تحس كما يضمف السمع والبصر لقلة
الاستعمال » 26 .

من هذا يتضح ان اللغة انما نشأت بسبب
عوامل ودوافع نفسية بحثة ، ثم وجد الانسان الاول
ان اللغة يمكن ان تحقق له فوائد كثيرة فانتبه لذلك

مراجع جمع :

- 1 - انظر مجلة «النجم» العدد السادس من السنة الثانية ص 73 - العراق .
- 2 - المصدر السابق ص 85 - 86 .
- 3 - الخصائص لابن جني . الجزء الاول ص 39 - 40 مطبعة الهلال بمصر
- 4 - الاحكام في اصول الاحكام للامدي ، الجزء الاول ص 105
- 5 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 39
- 6 - المصدر نفسه ج 1 ص 45
- 7 - فقه اللغة للصاحب ص 5 - بيروت
- 8 - المصدر السابق ص 6
- 9 - نفس المصدر السابق ص 7
- 10 - مجلة «المعرفة» العدد 3 من السنة الاولى - المملكة العربية السعودية .
- 11 - مجلة «النجم» العدد السادس من السنة الثانية ص 38-40 - العراق .
- 12 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 39 .
- 13 - مجلة «المعرفة» السنة الاولى ، العدد 3 - السعودية .
- 14 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 41-42 .
- 15 - الاحكام في اصول الاحكام للامدي ج 1 ص 106
- 16 - مجلة «المعرفة» السعودية العدد 3 السنة الاولى .
- 17 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 44-45 .
- 18 - نفس المصدر السابق ص 45 .
- 19 - دراسات في فقه اللغة ص 155 - العراق (الدكتور صبحي العالم)
- 20 - معجم «متن اللغة» ج 1 ص 18 (الشيخ أحمد رضا) - العراق .
- 21 - مجلة المعرفة السعودية الجزء الثالث السنة الاولى .
- 22 - مجلة «النجم» العراقية العدد 6 من السنة الثانية ص 50-51 - العراق .
- 23 - مجلة «المعرفة» السعودية السنة الاولى الجزء الثالث .
- 24 - مجلة النجم العراقية العدد السادس ص 51 - العراق .
- 25 - اصول تدريس اللغة العربية ص 10 العراق .
- 26 - معجم متن اللغة ج 1 ص 19 . والزهر للسيوطي ج 1 ص 36 .